الشعر العربي في شرقيّ الاردن

مقالة ادبية اخلاقية بقلم حضرة المؤرخ بولس سلمان

ان من اطلع على الآثار الادبية التي ابقتهـا لنا الامم الماضية رأى ان الشعر أقدمها عهداً وابعدها زمناً في مراقي الاجيال . فكل شعب في طور نشأته وصدر أيامه يطرب لسماع الروايات الخيالية ويرتاح نفساً لحوادث الابطال الشعرية ولذلك توفّر المنظوم في الاعصر الغابرة وكثر صاغتُهُ ومنشدوه . وحسبُ الناظر ان يسرّح الطرف فيما خلّدهُ اهل الهند واليونان والعرب من بديع الشعر ورفيعه . فسكّان الهند اشتهروا برواية الرامايانا (Ramayana) وهي تنبئ عن توقد ذهنهم وتفنّنهم في اساليب البيان والابتكار فشعرها من الطبقة المثلى يروي فيها شاعرُهم حروب «راما» التي اقامها على سيلان خاطف زوجته . ومنهـا المهابهرانا (Mahabahrana) وهي اقدم رواية سُطِّرت في بلاد الهند تخبرنا عن حروب البانقاداس والكوروس

بيد ان الاغريقيين قد نالوا قصب السبق في ميدان الشعر واحرزا الشهرة الواسعة والصيت البعيد في مجال الآداب فلقد وعى لنا الدهر روايتين تُعدّان من رائق الشعر وكامله فذكرهما يغني عن البيان والثناء. ألا وهما رواية الاليـاذة ورواية الاوديسة يتداولهما المتأدبون ويتلوهما المطالعون عامّةً وخاصّةً تزهةً للافكار ومثالاً في الابداع والسناء . والعرب القدماء مع بعدهم عن مجالي المدنيّة وتنحّيهم عن اسباب الحضارة قد تركوا للمتأخرين المذهّبات السبع الشهيرة التي اجمع ارباب النقد من كل قطر ومصر على محاسنها

غير ان العرب الحالين القاطنين في شرقي الاردن (١ لم يخرجوا عن سنن الامم

١) العرب الذين نبحث اليوم عن شعرهم وشراتهم هم الصخور وشيخهم فوّاز . والعدوان وشيخهم سلطـان العلي الذباب . وعيّاد وشيخهم نمار البخيت . والعجارمة وشيخهم نايف بن شهوان . والفتيات وشيخهم سالم ابو التم . والشوابكة وشيخهم عبدالله المطـايبة . والحمايدة وشيخهم ابو ريحة . والحويطات وشيخهم الكبير عودة ابو تاية واميرهم المعروف هو عرار ابن جازي . والمجالي وهم عرب الكرك وحكّامها واكبرهم توفيق المجالي ورفيقان . والشرارات وشيخهم كاسب الحاوي

التي سبقتهم . وان كانوا اقلّ الشعوب تمدّنًا واحطّهم منزلة وابعدهم عن الترقي والعمران فقد نشأ الشعر في ربوعهم وأحيت البوادي من ارباب النظم عددًا يُذكر وذلك امر طبيعي لان الشعر ينطلق به لسان البدوي وترسلهُ قريحتهُ عفوًا بلا تعب فهو حينما يطوي القفار الشاسعة توثر في مخيلته صور الجمادات التي يتعهدها بانظاره . هناك يرى الجبال الشامخة والسهول الفسيحة والوديان المقفرة والاطلال المبعثرة فتنحصر في مخيلته التي لن ينطق بها يوماً بالشعر الجيّد ويصف تلك المشاهد التي انطبعت في محفوظه . وسنبيّن في مقالتنا اسباب الشعر عند العرب

ولا مراء ان موضوعاً كهذا يستغرق وقتاً طويلاً لجمع الاشعار من تلك القبائل المنتشرة في القفر ويطلب ممّن يخوض فيهِ ان يكون عارفاً بطباع الاعراب وآدابهم متضلعاً بلغتهم كي يُعبّر عن غامض الشعر ومُبهمهِ بما يطابق المعنى الصحيح وان يكون قضى فيما بينهم اياماً مديدة ناقلاً قصائدهم ومكرّرًا ما سطره لأول مرّة وناقدًا مواقع الزلل والغلط ولا بدَّ لهُ ان يكون خالطهم وعاشرهم في جميع حالاتهم في مآدبهم ومسامراتهم وافراحهم واحزانهم . ولمّا نزلنا في ربوع السلط منذ ثلاثة اعوام اخذنا نستأنس الى حديثهم وشعرهم فارتاحت نفسنا الى هذا الموضوع الفريد . وكثيرًا ما كنّا نأتي بالشعراء الينا ونكرم مثواهم وفي اثناء ذلك كانوا يتلون علينا قصائدهم وكنا ندوّن ما جاد وحسن . ولبثنا هكذا نتقلّب بينهم مقيمين بين ظهرانيهم محاضرين جميع طبقاتهم متعقبين اشعارهم وما يتغنون بهِ في سائر احوالهم الى ان جمعنا كثيرًا من شعرهم فاخترنا اجلّهُ وبسطناه في خاتمة المقالة

ولقد اتسعت الاداب العربية في عصرنا الحاضر بهمة ارباب البحث والمطالعة على ان الباحثين لم يقيموا لشعر العرب الحاليين فصلاً في مباحثهم ولا ذكروا لهُ اسماً اللهم الّا ما ندر من الرحّالة الاوربيين الذين وصفوا عوائد العرب واخلاقهم وسطّروا في عرض كلامهم شيئاً عن آداب العرب بما لا يقنع غلّة صادٍ ولا يروي المطالع المدقق واذا اتوا ببعض اشعارهم نقلوها الى لغتهم الاجنبيّة فلم تَغنَ العربيّة بها ولم ندرك شيئاً من لغة اولئك الاقوام . غير ان الوقوف على اشعار العرب الحاليين كثير الفوائد للمؤرخين والمتأدبين واللغويين وغيرهم . فالمؤرخ يطلع على حالة امة شريفة العواطف رفيعة النفس لها حروب ووقائع وايام معدودة دافعت فيها عن حريتها

وتأبى ان تذلّ تحت حكم حاكم ولها سنن معهودة تجري عليها . وارباب اللغة يشاهدون تقلّب اللسان العربي بين هؤلاء الاقوام وما طرأ عليه من الاغلاط الصرفية والنحوية وكثيراً ما يتلون في شعرهم تلك الكلمات الفصحى التي كان يستعملها العرب القدماء وذلك لانفرادهم عن الاعاجم وتنائيهم عن الاجانب

وارباب الخيم الحالّيون لم يزالوا على عهد جاهليتهم . وان كانوا قضوا اجيالاً عديدة فهم على ما كانوا عليه منذ عشرين عصراً حتى ان شعرهم لقد يقرب نوعاً ما الى الشعر الجاهلي من حيث المعاني والاوزان . وذلك لان تلك الامة لم تختلط بما جاورها من الشعوب بل اعتزلت بقيافيها الشاسعة والتجأت الى براديها الواسعة الاطراف ايام المصاعب . فان محبّي الآثار يجدون في مطالعة اشعار العرب لذّة كبيرة وفائدة عظيمة فانهم ينتقلون ببرهة قصيرة الى عهد امرئ القيس وغيره من فحول الشعراء

ولقد بحثنا في مقالتنا هذه عن الشاعر العربي وصفاته الخارجية والداخلية وما يقام له من الاكرام والاجلال فضلاً عن العطايا الجزيلة والهبات الوافرة . وذكرنا شيئاً عن كثرة الاشعار عند العرب واسباب وفرتها وقابلنا بين اسواق الجاهلية ومحافلهم في دهرنا الحاضر واتينا بعد ذلك باقسام الشعر وتركيبه وما اختصّ به من الميزات لاسيما في مطالع القصيدة وقلبها وخاتمها وبحثنا عن اوزان الشعر الحاضر وسطّرنا اسماء الشعراء المشهورين كسر الدوان وابي الكبابر وعلي القزيمي وغيرهم من الشعراء والشاعرات وختمنا كلامنا باشهر النظم وكشفنا عن غامض معانيه بشرح مسهب . وغايتنا في ذلك خدمة الاداب العربية فنقول :

ما هو الشاعر العربي ؟

ان الشاعر العربي لا يتميّز عن غيره بثوبه ورداته بل ربما كان غيره خيراً منه . فان كان شاباً غضّ الاهاب في ربيع عمره تجلو له الحياة بمحاسنها فيلبس الثوب الحريري الطويل الاردان ويتعمّم بالكوفية الخزّية والعقال القصبي . والعقال هو عادةً لفافة من صوف مجروم يلفّها العرب حول المنديل . ويشدّ على حقويه مسدّساً ويضع الى جانبه الايسر سيفاً ثميناً . ألا انظر الى عينيه المتكحّلتين وجديلتيه المضفورتين المسترسلتين على كتفيه وعارضيه المرتفعين فهذا هو الشاعر الشاب تلهوه

الزينة واللاهي واذا كان متقدماً في العمر تجافى عن تلك الاباطيل فتراه لابساً قميصاً طويلاً وعباءة صوف ولهُ لحيـة قصيرة تدل على فطنته ورزانته . غير ان الشعراء في عهدنا الحاضر لا يملكون من الدنيا شيئاً فيعيشون متطفلين على موائد اهل الكرم مكتفين من ارباب الجود والاحسان . فلقد عهدت شاعراً شرارياً يدعى عليّـان عليه ثوب بالٍ وعباءة متقطعة ولهُ منديل أكل عليهِ الدهر وشرب يمشي حافي الاقدام حتى اصبحت رجلاه صلبتَيْن كالحجر يقتات من صيـد الغزلان . على انهُ يقظ الفؤاد متلهب الذكاء يدرك بالايماء قبل اللفظ واني لا اعرف شاعراً غيره شرارياً وهو يدعى عليًّا فكنتُ لا اسألهُ عن قصيدة بدوية او معنى شعري الَّا اجاب : اعرف ما تريد . ويُنشد في الغرض المطلوب القصائد العديدة . ومما يتضح من اشعارهم انهم سريعو التخيُّل صادقو المشاعر يستخدمون التشابيه التي يرونهـا في البيداء كمثل البرق والسحاب والخيول السوابق والسيول الجارفة ولا ينسون شيئاً من الاستعارات التي كان يأتي بها الجاهليُّون في عصرهم

وبعد ان نظرنا الى ظواهر الشاعر علينا ان نصف صفاتهِ الحقيقية كما يعرفها العرب انفسهم . فالعرب يستعملون كلمة الشاعر بمعانٍ كثيرة منهـا الراوي للشعر الحافظ لجديدهِ وقديمهِ المطرب للسامعين في السامرات ومجالس الشيوخ والامراء . فهؤلاء الشعراء لا يحصى لهم عدد بين اصحاب المضارب . فهناك نجد اناساً كثيرين واسعي الحفظ يستظهرون على صفحات قلوبهم ما يسمعونهُ مرَّات او مرَّة واحدة وهم أميُّون لا يعرفون من القراءة والكتابة حرفاً فيحفظون قصائد كبيرة سمعوها من دهر بعيد لا يخلُّون بكلمة منها بعد الزمن الطويل .

ولكن الشاعر الحقيقي هو المنشئ المجيد المبتكر لاساليب النظم فيقوم الشعر في خدمته ويروض القوافي الصعبة والمعاني الجميلة فيبديه بالكلام الموزون المقفَّى . وهؤلاء الشعراء نفر قليل بين الاعراب فلكل عشيرة شاعرها يتبعها في نزلها ورحيلها يمدح الامراء ويُثني على كرمهم وضيافتهم ويصف الغزوات والابطال المشهورين . ولا بدَّ للشاعر المجيد ان يتحلَّى بصفات ثلاث : فالأولى ان يكون مبتدعاً لانواع الشعر قديرًا على نظم القصائد الوافرة ووصف جميع ما يعرض للبدوي من الاعراض في باديته وبين نياقه وخيله . والثانية ان يكون واضح الصوت جليَّهُ . والثالثة ان يكون

ضارباً على الرباب . فمن اصاب تلك الصفات عُدَّ شاعرًا ونال من الاكرام قدرًا وافرًا

يقضي الكمال على الشاعر ان يكون واسع المخيلة كثير الحفظ نقّادًا لاحوال العشيرة عارفاً باذواق الاعراب وطبائعهم وما يحلُّ في صدرهم محلَّ الرضى والاستحسان وبارعاً في وصف المواقع والحروب فالشاعر هو الذي يحيي الجماد بحيث يشعر الحضور بتأثير لم يكونوا عهدوه من ذي قبل . فالشاعر العربي اذا وصف فرساً سَبُوقاً وصف اعضاءها كلها وركضها وعلوها وارتفاعها كقول سلمان اليماني :

هَيْهلا يا راكبًا حسن الرفيفْ يقطف النوّار بدري ان أَمَرْ (١
كأن زوله يوم يقفي بالرديفْ مثل ريح مع سنودْ ومنحدرْ (٢
بشدا هيج يوم طلعْ لهُ قنيصْ طلع القناص بالمقعدْ دغَرْ
راكبًا لهُ عندل قبًّا تروحْ برها من زين حسنات الوَبَرْ
ان فهقتها بصاريع العنانْ تفزّ فزّات الغزال على الجَمَرْ

واذا وصف ناقة اجاد كقول علي القريمي :

هَيْهلا يا راكبين فوق فيحْ مثلْ سَبْحانِ الجراد مُسْرِعْناتْ
او تشدنْ رفَّ القطا مع وجه ريحْ هجاهيج بلحتن المزفياتْ
او تشدن برق الحياة يرمع ريحْ من هماليل الثريا ناشياتْ

ودونكم وصف سيف الشاعر المذكور وكان قد طلب بندقية من طلال بن رشيد قال :

اني طلبتْ بندقٍ ترزح رزيحْ هواياها بالضرب بَيّناتْ
نالت طلبة هندية ضرها صحيحْ من سيوف يا طلال مشرفاتْ
رمادٍ ان سطا الدم يطبحْ وروس في المجاج مُدَمَّلاتْ

فهذه الصفة ترتاح اليها الاعراب وبها يميّزون الشاعر المجيد من الضعيف القاصر . وكثيرًا ما يصف الشعراء الحروب والغزوات . هناك ثمانين الفارس على متن الخيول الاصيلة لا يهاب المنايا فتخال انفسنا في وسط الميدان . هناك يجول الابطال في ميدان واسع الاطراف فيعلو الغبار في الفضاء وترتفع الاصوات في السماء وتُسمع قعقعة الاسلحة ودويّ الرصاص وخبب الخيل ثم يُعقبها سكوت الموت في تلك

---

١) حسن الرفيف اي الفرس الحسنة الركض . طعامها من زهر الحقول قبل ان يتفتح

٢) كأنَّ غلها حينما تسرع في ركضها كالريح الشمالي مع الجبال والمنحدر الى الوديان وقد كشفنا عن غامض معانيها في اخر مقالتنا بشرح مسهب . فعلى المطالع ان يقرأه

البيداء. هناك تهوي الرجال على الارض مضرَّجة بالدماء. وقد ادرك الشعراء ما يؤثر في قلب المرء فذكروهُ وابدعوا. اطلب مثلاً قصيدة ابي الكبابر الشاعر الشراري وفيها يمدح عودة امير الحويطات تتحقَّق رفيع وصفهم واتساع مخيلتهم وقد ذكرناها في آخر كلامنا

ولا بد للشاعر من صوت رخيم واضح لان الشعر عند العرب مُغنًّى. فان كان الصوت مرتفعاً سمعهُ الحضور من اطراف البيت. فما هي الاصوات الرخيمة عندهم؟ هي القوية المرتفعة فالاصوات التي يحبُّها اهل المدن لا تنال عندهم استحساناً بل ربما استهجنوها وكرهوها لانهم اعتادوا على اغانيهم والحانها دون غيرها. لا تسل الاعراب عن اصوات المغنين البارعين فلا تؤثر بهم ولا يجدون بها لذَّة بل ربما سئموا لسماعها فيعدُّون انغام المرنمين المطربة الحاناً شاذَّة مملَّة. وكذلك اهل المدن الغنَّاء وارباب الترقي والعمران اذا سمعوا غناء الاعراب لا يدركون لهُ معنى ولا يفهمون منهُ حرفاً بل يعدُّونهُ من الالحان الوحشية. ولقد طرقت مسامعنا اغانيهم فوقفنا عندها حيارى لا ندري ما ينطقون بهِ

ويكون الشاعر مجيداً اذا ضرب على الرباب. فالرباب ويسميها العرب الربابة هي نوع من آلات الطرب تضارع العود الصغير يصنعونها من جلد الوبر. فيأخذون خشبات اربع يقرنونها باطرافها الاربعة بالمسامير وطول كل واحدة منها ثلاثون سنتمتراً وعرضها عشر سنتيمترات فيجمعونها بحيث تصبح مربعة ثم يلفُّونها بجلد الوبر ويضعون شعر فرس او حصان يُشدُّ عليها من اعلاها الى اسفلها. وللرباب مفاتيح كالعود بها يُشدُّ الشعر او يُرخى على حسب اغراض الشاعر ولا بدَّ للرباب من قوس تُربط اطرافهُ بشعر مشدود. ولا تأتي الرباب بصوت الَّا اذا احتك شعر القوس بشعر الرَّباب وقبل الضرب على الاوتار يمرُّونها بالنار كي تحمى وكثيراً ما تُفرَكُ ببخور حتى تُسمع صوتاً مطرباً واذا لم تأتِ بصوت شجيّ قالوا: انها جانعة. فالشاعر الماهر يدبّرها كيف يشاء. فتأتي تارة بصوت حزين يفتت الاكباد كآبةً كما لو انشد الشاعر من رثاء نمر العدوان لزوجتهِ «وَضحاء» فتحنّ وتئنّ آنات الاسى فيعطف الفؤاد وتبكي العين لسماعها. وتارة تهبّ بصوت عاصف كصوت الابطال في الحروب فيرقص الحاضرون طرباً واستحساناً. وتجري اخرى كسيل هادئ في مدح الاغراء واهل

الكرم وطوراً تتبع الصوت بليّات وعطفات وطوراً يتبعها الصوت ويأخذ من الحانها ومن ذلك نشأت الالحان عند العرب . فمنها اللحن الرثائي والحربجي اي الحماسي والشتري او الشروقي وهو غناء اهل الشرق في غزواتهم وحروبهم . والهجيني وهو غناء الراعي حينما يورد غنمهُ او ابلهُ الى المياه وهو يمثل سير النياق والعرب الاقدمون يسمونهُ خبباً . والهلالي وهو شعر بني هلال

وكم من مرّة عاد في محفوظنا ذكر الشعراء الذين عاشوا في الاجيال الوسطى عند الفرنسيس وغيرهم المدعوين « Troubadours » فكانوا كشعراء العرب الحالين يجولون من قصر الى قصر طالبين الاحسان من اهل الفضل مرنمين الترانيم البديعة والاشعار الرقيقة والحماسية راوين الحكايات والروايات الخيالية . والامراء في وقتنا الحاضر يعلقون الرباب في وسط خيمتهم يعدّونها للشعراء في اوقات الافراح كولد بهيج او عرس او تطهير او محفل حافل او اعياد دينيّة او مدنيّة او في عودتهم من غزوة وهم ظافرون كاسبون

اكرام الشعراء وصلاتهم

وكان الشعراء في كل آن ومكان مكرّمين معزوزين تخشى القبائل والعشائر من لسانهم وهجائهم فلقد مثّلوا كلامهم وطعنهم بسمّ الرقطاء او بسيف ذي حدّين ولذلك اقاموا لهم قدراً رفيعاً واكرموهم جهاراً وخفية ولو كانوا في اقصى درجات الفقر والذلّ . واذا نبغ بين الاعراب شاعر وفدت الوفود من العشائر البعيدة والربوع القاصية يهنئونهُ بما أنزل على لسانهِ من بديع المعاني فيعدّون مجالس السرور ويُحيون الليالي الساهرة ويولمون الولائم اكراماً لهُ واجلالاً . ويقول العرب ان لكلّ شاعر جنّاً او شيطاناً يلقّنه الشعر وهو عندهم بمثابة إلاهة الشعر (Muse) عند اليونان . على ان الشاعر يسير من ربع الى ربع يمدح الامراء ويطلب منهم العطايا الجليلة والانعامات الوافرة . وكأني بهِ ينشد قول الشاعر :

لا تقبلنَّ الشعر ثم تعقّهُ وتنام والشعراء غيرُ نيامِ .
واعلم بأنهمُ إذا لم ينصفوا حكموا لأنفسهم على الحكّامِ
وجناية الجاني عليهم تنقضي وعقابهم باقٍ على الايامِ

غير ان الامراء يجزلون لهم العطاء خوفاً من هجائهم . ومن عاداتهم انهم يهدون لهم فرساً كريمة او سيفاً باتراً او رمحاً قاطعاً او بندقية . او يحملون لهم جوالق الحنطة واكياس الطحين ويقدمون لهم ولعيالهم الكسوة وربما انزلوهم في خيمهم واطعموهم على موائدهم كاهل بيتهم . واذا نزلت المصائب بشاعر ما يقصد الامير ويستعطف قلبهُ فيحسن اليهِ بما تجود بهِ نفسه . واذا حُكِمَ على المجرم بحبس مديد سطَّر من سجنه قصيدة الى الحاكم او الى كبير البلدة كي ينقذه من هذه الورطة . واذا وقع الشاعر اسيراً على اثر حرب بذلوا جهد طاقتهم لاسترضائهِ ومداراتهِ فاخذوا عليهِ العهود الشديدة والأيمان المغلظة ألَّا يهجوهم واذا رأوا منهُ خبثاً او مكراً قطعوا لسانهُ او ذبحوه

وفرة الاشعار عند العرب

وشعر العرب الحاليين وافر جدًّا لتوفُّر ملكتهِ عندهم واستحكامها فيهم فاذا جرى لهم حادث ذو شأن اثَّر في محفوظهم وعقولهم ذكرهُ في اشعارهم فخلَّدوا اثاره واحيوا تذكارهُ على تمادي الازمان . ولا يخفى ان الشعر اصلحُ من النثر لوصف الحروب والمواقع فتحفظهُ الحوافظ لسهولة وزنهِ وتردُّد قوافيه ممَّا يعين الذاكرة على استظهاره ونقله في النوادر . والحوادث التي تقع موقع الاعجاب في عقل البدوي كثيرة لمكانه من السذاجة وقصوره عن ردّ الوقائع الى اسبابها . ويوجد غير ذلك من الاسباب فمنها ان العرب قبائل شتى مستقلَّة بعضها عن بعض في الاحكام والاملاك مشتركة الحاجات في المعاش فلذلك كثر فيهم النزاع وحبُّ الحروب فنشأ فيهم اناس أثرت فيهم تلك الحالة فاخذوا يصفون ما يتهددونهُ بعيونهم . والبدوي سريع الغضب غيور على حرَّيته وعيشته في البراري والقفار لا تحمل نفسهُ الضيم والجور فكانت تدعوه نفسه الى الانتقام والاخذ بالثأر ورفع العار من بين عشيرته فكان الشاعر يتبعها في الحروب والغزوات لاضرام نيران الحماسة ووصف الظفر والابطال ولهذا توفرت القصائد الحماسيَّة فالشعراء كانوا يركبون الهلَّعات السابقة يسيرون معهم في ميدان الوغى او يرتفعون على مشارف الجبال ليعاينوا الاعداء ويصفوا الفرسان والظافرين من الفريقين

ولهم عادات حميدة يتميّزون بها عن سائر الامم ألا وهي اكرام الضيف. فعنها قال شاعرهم :

اضاحكُ ضيفي قبل انزالِ رَحلِهِ ويخصبُ عندي والمحلُّ جديبُ
وما الخصبُ للاضيافِ ان يكثر القرى ولكنما وجهُ الكريمِ خصيبُ

فيذبحون لهُ الذبائح ويقضون هزيعاً من الليل يسامرونهُ ويتحدثون معهُ الاحاديث اللذيذة فيدعون الشاعر بعد العشاء ليطرب الحاضرين ويكون الشاعر حينئذٍ مكرّماً معزّزاً يصمت امامه المدعوون ويسمعون كلامه وغناءه. ولا تخلو البيداء من اعياد بهجة واوقات افراح ومسرّات ففي الاعراس تذهب النساء والفتيات وكل ثلاث يتغطّينَ بعباءة واحدة فيسرنَ الى بيت العروس وهنَّ يغنين الاغاني البديعة وعند المساء يجتمع جمهور من الشبان في بيت العريس يرقصون ويغنون ويصفقون بايديهم على الحان معهودة ويتناشدون الاشعار في ذلك وتعرف عند العرب بالسحجة وفي ملاهيهم يدعو الشبان امرأةً للرقص فيا بينهم فتأتي المرأة مغطاة بالعباءة الصوفية وعلى وجهها القناع فتنتضي سيفاً وتقف في وسطهم وترقص على اوزان معلومة وتنشد الاشعار الخفيفة اللطيفة طبقاً للغناء.

ويستخدمون الشعر في غير ذلك من الحالات فاذا دهمتهم داهية عظيمة قام النظم في خدمتهم كما لو قطف المنون شاباً في ريعان عمره او حبيباً عزيزاً او شيخاً كبيراً او اميراً رهيباً ذا سطوة وشجاعة فترى النساء النادبات ينشدن المراثي الرقيقة فتئنّ اوتار القلوب بالحان كئيبة مما يعجز القلم عن وصفه. هناك الأمّ فوق سرير ابنها الماثل قتاجيه بالبكاء وذرف الدموع وتحدثه بكلام مؤثر فتُبكي العيون وتدمي القلوب على فقيدها وكأنها تسمع ولدها يناجيها بكلامه فتجيبه وتودعه. فقد سمعنا امًّا تندب شاباً لها عمره ثمانية عشر سنة وكانت تحدثه بحديث رقيق وكأنهُ هو ينطق وهو جامد اللسان فيقول لها :

ايا امي هلمّي ودّعيني لانك لن تعودي تنظريني
وضمّيني اليكِ بعد موتي ومن شفقٍ بدمعك بلّليني
اردُّ بحضنك المحبوب نوماً فهل فيهِ بحبٍ تضجعيني
على الدنيا ومن فيها سلامٌ وما في الموت يا امي ارحميني

وحينما يحمل الحاملون ابنها او زوجها الى المقابر تسير وراء النعش وهي تندب

وتبكي اذا وقف الحاملون امام الرمس تسقط المرأة على الارض وتضع التراب على رأسها وتشق ثيابها وتنتف شعرها وتودع حبيبها بالكلام المؤلم ولقد رأينا غير واحدة تخدش وجهها وترخي شعرها على كتفيها دلالةً على الحزن والشجن. ولقد سمعت امًّا تحدث الاحجار والنجوم الساهرة وظلام الليالي وكواكب الظلماء وتقول: «وديعتي عندكم احرسوها بالطافكم». تناجي القبر وتستحلفهُ بان يحفظ ابنها من عوادي الايام وطوارق الحدثان وتتمنى لو تكون حارسةً مدى العمر على قبر ولدها

ومن ابدع المراثي ما انشدهُ نمر العدوان على امرأتهِ «وضحاء» لا سيما اذا تغنى بهِ الشاعر وضرب على الرباب وقرن صوتهُ الى صوتها. فكان تارة يناجي امراته وتارة يحدث ابنه الطفل «عقاب» ودونكم من قولهِ لابنهِ وهو يلعب مع الاطفال لا يدري من الاحزان شيئاً:

يا عقابْ ياعزي أين حالكْ وحَالي ... قَفَت ليالي مزهرة بدلالكْ
قَفَا سُرُورك مَعْ هاتيكَ الليالي ... عَفَتْ الليالي والطربْ والهنا لكْ
كل الشجا والحزنْ والبينْ جاء لي ... جاني ضناي وقال لي افنيتَ حالكْ
محبوب عيني ساكنْ الدور خَالي ... ياعقابْ انتَ تلعبْ مع رفاق اجيالكْ
وانا يا عقاب على النيران الالي ... طير السعادة طار لا لي ولا لكْ
طار السرور عني والهنا لا لي ... والحزن نزل بقلبي واناخَ بالكْ

لعمري ان البدوي يقضي من الايام امرَّهـا طويح الحزن والكمد لانهُ يميل بطبيعته الى الافكار المحزنة فيشعر بصغره وحقارته وتشيب ناصيتهُ تحت اوزان الاحزان فيرى نفسهُ وحدها لا شريك يشاطرها غمَّها وكآبتها ولا عين ترمق اليها لتفرج عن كربتها ولا ابتسام من ثغر حبيب ولا كلمة من فم صديق فيصرخ صراخاً اليماً بالشعر المؤثر كما صرخ نمر العدوان صراخاً ابكى العشائر كلها واصبح غناء المحزون المكروب النفس

غير ان الراعي ينشد الاشعار في مسارح الاغنام على الجبال والهضاب في السهول الفسيحة والربوع النضرة فتفيق نفسهُ الى ذكر الاحبَّة الظاعنة والاصدقاء الراحلة. فتراه حاملًا مزمارهُ يغني طوراً وطوراً ينفخ في آلته يطرب نفسهُ واغنامهُ الراتعة في الكلإ. ثم يرتفع صوتهُ مالئاً الفضاء مناجياً جداول الماء او طير السماء وزهور الحقل او عشب الصحراء. امَّا الامّ فترنم الشعر على سرير ابنها وتغني لهُ كي ينام وتهزّ

مهجعهُ الصغير واذا نام طفلها اخذت المنزل تبرم الصوف على المغزل تغني غناءها. وكذا الاعرابي اذا ركب الهُجُن واوردها على الينابيع البعيدة او الآبار القريبة يرتل شعرًا دعاه الهجين فهذا الشعر يجري على سير النياق يشبه دقّ الناقوس في الشعر القديم. ومن كل ذلك يتضح ان الشعر من ضروريات الاعراب يستخدمونهُ في افراحهم واحزانهم وفي كل حالة من حالات معيشتهم (لهُ بقيّة)

ميمر لمار اسحاق السرياني

في عيد بشارة العذراء

نشرهُ الاب لويس شيخو اليسوعي

تَوطِئَة

نتقل هذا الميمر عن احد مخطوطات مكتبتنا الشرقيّة وهو مجموع ميامر قديم للآباء القديسين سبق لنا وصفهُ في المشرق (٨ [١٩٠٥]: ٤٢٥) تحت العدد ٦٠. فمن جملة تلك الميامر ميمر لمار اسحاق السرياني (ص ١٨٦ – ١٩١) في عيد بشارة الملاك جبرائيل لمريم العذراء الواقع في ٢٥ آذار فبنسبة وقوع العيد في هذا الشهر احببنا نقلهُ لقرّائنا الكرام. ويؤخذ من هذا المجموع ومن غيرهِ ايضًا انَّ الكنائس الشرقيّة على اختلاف طقوسها كانت تتلو هذه الميامر في ايام الآحاد والاعياد عند اجتماع المؤمنين. ومجموعنا هذا كان مختصًّا بكنائس الروم الملكيين فيهِ ميامر من آباء الكنيسة اليونانيّة كالقديسين يوحنّا ذهبي الذهب وباسيليوس وغريغوريوس وابيفانيوس وكيرلّس وغيرهم ومن ملافنة الكنيسة السريانيّة كالقديسَيْن افرام واسحاق ومن معلّمي الكنيسة القبطيّة كتاوفيلوس اسقف فسطاط مصر وبولس البوشيّ. وكفى بهذا دليلًا على ائتلاف الكنائس واتّحادها باكرام قدّيسيها

واسحاق السرياني الذي نروي اليوم ميمرهُ يُعرف ايضًا باسحاق الكبير واسحاق الانطاكي ازهر في اواسط القرن الخامس للميلاد ولقدم عهدهِ لا يُعرف من اخبارهِ سوى كونهِ مولودًا في الرها ومتنسّكًا في جهات انطاكية ولهُ من الميامر الشعريّة في اللغة السريانيّة ما نثر قسمًا منهُ المستشرقون في عصرنا كالعلّامة (السماوي الخوري بكل (Bickell) والكاهن الفرنسوي شابو (J.B. Chabot) وخصوصًا حضرة مواطننا الاب بولس بيجان اللازوريّ